

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ

الاستدلالية التالية من قبل الأشاعرة

لقد أسلفنا بأنَّ الأشاعرة البايسة لم تُفكِّك - في أدلةها على الكلام النفسي - بأنَّ بعضَها تُثبتُ الكلام النفسيَّ لله فحسب وقطعاً منها تُمثِّلُ الكلام النفسيَّ للإنسان فحسب، وبالتالي لم يَعُثُر على دليلٍ آخرٍ يُسجِّلُ كليهما إلا دليلاً لهم الماضي الذي قد حذفَ الإرادة في الأمر الامتحانيِّ والإعذاريِّ فإنَّ هذا النمط من الأمر يشترِكُ بين الله و الإنسان.

و الآن سَنُستعرضُ دليلاً لهم التالي:

لقد تَشَبَّهُوا بالآية التالية: - لِيُثبِّتوا الكلام النفسيَّ لله تعالى - «وَكَلَمُ الله موسى تكليماً» [1] ثُمَّ بَنَوَا الاستدلالَ على أربع مقدماتٍ قادمة:

1. إنَّ التَّكَلُّمَ مِنْ أَوْصَافِ اللهِ تَعَالَى بِلَا ارْتِيَابٍ.

2. إنَّ الْأَوْصَافَ الْإِلَهِيَّةَ كُلُّهَا تُعْدُ قَدِيمَةً كَذَاتِهِ تَعَالَى إِذْ لَوْ أَصْبَحَتْ حادِثَةً لَأَفْضَى إِلَى حُلُولِ الْحَادِثِ فِي الْقَدِيمِ بَيْنَمَا لَا تَقْعُدُ ذَاتُهُ الْقَدِيمَةُ مَحَلًا لِلْحَوَادِثِ وَإِلَّا لَتَقْوِمُ الْقَدِيمُ بِالْحَادِثِ فَاسْتَدِعَ الْحَادِثُ التَّغْيِيرَ فِي الْذَّاتِ الْقَدِيمِ.

3. إنَّ الْكَلَامَ الْنَفْسِيَّ مَدْلُولٌ لِلْكَلَامِ الْلَفْظِيِّ وَحِيثُ إِنَّ الْلَفْظَ مِنْ جَمِيلِ الْحَوَادِثِ - إِذْ يَتَرَكَّبُ مِنْ الْحُرُوفِ وَالْمُرْكَبِ - فَيُعُدُّ تَدْرِيْجِيَّا الْحَدُوثِ بِخَلَافِ الْكَلَامِ الْنَفْسِيِّ تَمَامًا.

4. إنَّ الْكَلَامَ الْنَفْسِيَّ حِيثُ يُعُدُّ صَفَةً مَكْنُونَةً وَقَدِيمَةً فِي النَّفْسِ الْإِلَهِيِّ، فَسِيَخْتَلِفُ عَنْ سُنْخِ الْكَلَامِ الْلَفْظِيِّ - وَمِنْ غَيْرِ مَقْوِلَةِ الْلَفْظِ وَالْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ - وَلَهُذَا لَا يُعُدُّ حادِثًا أَبَدًا، فِي الْتَالِيِّ، نَتَخَذُهُ عَنْصَرًا مَخْفِيًّا فِي النَّفْسِ.

وَنَتَصَدِّي لِتَفْكِيرِ الْأَشْعُرِيِّ الْمُتَبَذِّبِ هُنَا:

1. أولاً: بِأَنَّهُ قَدْ اسْتَدَلَّ عَلَى اسْتِحَالَةِ الْكَلَامِ الْلَفْظِيِّ - نَظَرًا إِلَى حَوْثُهُ وَالْحَادِثُ لَا يَلوُجُ فِي الْقَدِيمِ - بَيْنَمَا هَذِهِ الْأَسْتِدَلَالِيَّةُ بِالآيَةِ الْكَرِيمَةِ لَمْ تُثِبِّتْ لَنَا تَوَاجُدُ عَنْصَرٍ ثَالِثٍ فِي النَّفْسِ يُسَمَّى بِالْكَلَامِ الْنَفْسِيِّ، نَعَمْ قَدْ تَجَشَّمَ فِي إِثْبَاتِ حَوْثُ الْكَلَامِ الْلَفْظِيِّ وَاسْتِحَالَةِ حَوْلِ الْحَادِثِ فِي الْذَّاتِ الْقَدِيمِ الْإِلَهِيِّ، فَظَهَرُ الْآيَةُ هُوَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ اتَّصَفَ بِصَفَةِ التَّكَلُّمِ وَأَيْنَ هِيَ مِنْ الْكَلَامِ الْنَفْسِيِّ.

2. ثانِيًّا: إِنَّ الْآيَةَ قَدْ صَرَّحَتْ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ كَلَمَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَوْ تَسْجَلَ - لَدِي الْأَشْعُرِيِّ - وَجُودُ الْكَلَامِ الْنَفْسِيِّ لِأَصْبَحَ النَّبِيُّ مُوسَى أَيْضًا مِنْ قِدْمِ اللَّهِ حَتَّمًا، إِذْ مُتَعَلِّقُ التَّكَلُّمُ الْإِلَهِيُّ الْقَدِيمُ هُوَ نَفْسُ النَّبِيِّ مُوسَى لِأَنَّهُ الْطَّرْفُ الْمُقَابِلُ لِلتَّكَلُّمِ الْإِلَهِيِّ - كَالْخَالِقِيَّةِ وَالرَّازِقِيَّةِ - فَيَتَحَمَّلُ أَنْ نُسْجِلَ قِدْمَ النَّبِيِّ أَيْضًا كَيْ يَتَحَقَّقَ الْكَلَامُ الْنَفْسِيُّ، بَيْنَمَا لَا يَخْضُعُ لِهِ الْأَشْعُرِيُّ الْمُتَطَفِّلُ نَهَايَيًا.

3. ثالثاً: إن إعراب فقرة "كلَّمَ تكليماً" هو المفعول المطلق النوعي - لا التأكيدية - ولهذا لا ينماطلُ الكلام الإلهي مع كلام البشر على الإطلاق فإن نمط تكلم الله قد تحدّد في الآية التالية: و ما كان لبشرٍ أَن يُكَلِّمَ الله إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ. فلو أصبحَ كلامُهُ تَعَالَى نَفْسِيًّا لَمَا تَلَانَمْ مَعَ المفعولِ المطلق النوعي، إذ من المُبَرَّمِ أَنْ تَكَلَّمَ الْبَارِي تَعَالَى يَتَفَاقَوْتُ نَوْعُهُ مَعْ جَوْهَرَةِ تَكَلَّمَ الْبَشَرُ، فَعَمَلِيَّةِ التَّكَلَّمِ قد اسْتَحْدَثَتْ بِلَوْنِ خَاصٍ مَعْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهَذَا لَا يَتَسَقُ مَعَ الْكَلَامِ النَّفْسِيِّ الْقَدِيمِ، فَرَغْمَ أَنَّ الْكَلَامَ الْلُّفْظِيَّ يُعُدُّ دَلَالًا عَلَى الْكَلَامِ النَّفْسِيِّ وَلَكِنَّهُ لَا يُسْجِلُ أَصْلَ وَجْدَ الْكَلَامِ النَّفْسِيِّ فَضْلًا عَنْ قِدْمِهِ.

الدليل التالي للأشاعرة

و هنا الأشاعرة المُتَرَعِّزَةُ قد كَفَتْ أَيْدِيهَا عَنِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فَاسْتَدَلَتْ بِوْجَدِهَا بِأَنَّ نُدْعِنُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ اتَّصَفَ بِسَمَةِ التَّكَلُّمِ حَتَّمًا وَحِيثُ إِنَّ ذَاتَهُ قَدِيمٌ فَمُوَاصِفَاهُ تُعَدُّ قَدِيمَةً أَيْضًا لَأَنَّهَا تَتَقَوَّمُ بِذَاتِهِ الْقَدِيمِ فَلَا يَقُعُ ذَاتُهُ مُوْطَنًا لِلْحَوَادِثِ عَقْلًا، فِي الْتَالِيِّ، قَدْ افْتَرَضَتِ التَّكَلُّمُ الإِلَهِيَّ صَفَةً نَفْسِيَّةً قَدِيمَةً.

ولكن نُحاجِّ الأشاعريَّ هنا:

أولاً: إنَّه قد فشَلَ فِي إِثْبَاتِ قِدْمِ "الْتَّكَلُّمِ الإِلَهِيِّ" كَصَفَةٍ نَفْسِيَّةٍ بَاطِنِيَّةٍ، بِلَ يَبْدُو نَيْرًا بِأَنَّ الْأَوْصَافَ الإِلَهِيَّةَ لَا تُعَدُّ كُلُّهَا قَدِيمَةً ذَاتِيَّةً بِلَ وَفَقًا لِلرَّوَايَاتِ وَالْتَّحْلِيلِ الْعُقْلَيِّ نَجَدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ حَظِيَ بِأَوْصَافَ فَعْلَيَّةِ حَادِثَةٍ، فَلَا نَضُطُرُ إِلَى تَسْجِيلِ قِدْمِ "صَفَةِ التَّكَلُّمِ الإِلَهِيِّ" نَهَايِيَاً.

ثانيًا: قد أَجَابَ الْمُتَكَلِّمُونَ -رَغْمَ أَنَّ الْفَلَاسِفَةَ لَا تَخْضَعُ لَهُذَا التَّفْكِيرِ- بِأَنَّ عَبَارَةَ "اللَّهُ مُتَكَلِّمٌ" لَا يَعْنِي التَّكَلُّمَ الْاِشْتِقَاقِيَّ الْمُصْطَلَحَ إِذَا لَيْسَ مُبَدِّيُ حَدِيثًا بِلَ إِنَّهُ مُصَدِّرٌ جَعْلِيًّا نَظِيرَ الْلَّاِبِنِ وَالْتَّامِرِ وَالْبَقَالِ وَ... حِيثُ إِنَّهَا قَدْ اشْتُقَتْ مِنْ مُبَدِّيِ جَامِدٍ تَامَّاً بِمَعْنَى بَايِعِ الْلَّبِنِ وَالْتَّامِرِ وَالْبَقَلِ، فَكَذَلِكَ التَّكَلُّمُ قَدْ اتَّخَذَ مِنْ مَعْنَى جَامِدٍ، وَعَلَى ضَوْئِهِ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَوْجُدُ الْكَلَامَ بِفَعْلِهِ الْخَارِجِيِّ، فَلَا يُعُدُّ وَصْفًا قَدِيمًا اِشْتِقَاقِيًّا لِكِي يَسْتَشْكِلَ الأَشْعَرِيُّ بِأَنَّهُ وَصْفٌ قَدِيمٌ مُشَتَّقٌ مِنَ الْكَلَامِ[2] إِذْنَ فَتَكَلِّمُ اللَّهُ يَعْنِي إِيَاجُ الْكَلَامَاتِ لِلْمُسْتَمْعِ وَفَقًا لِآيَةِ "مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يَكُلِّمَ اللَّهَ إِلَّا وَحْيًا..." فَهَتِي الْآنَ قَدْ انْهَرَمَ الأَشْعَرِيُّ.

وَامْتَدَادًا لِحَقِيقَةِ الْكَلَامِ، نَسْتَذِكُرُ اِتَّجَاهَ الْفَلَاسِفَةِ كَالْسَّيِّدِ الْخَمِينِيِّ، حِيثُ يُصْرَحُونَ بِأَنَّ الْأَلْفَاظَ قَدْ وَضَعَتْ لِلْمَعَانِي الْعَامَّةِ فِيَأْتِي الْمُتَكَلُّمُ وَيُظَهِّرُ عَمَّا فِي الْضَّمِيرِ عَبَرَ الْكَلَامَاتِ، إِذْنَ فَالْتَّكَلُّمُ هُوَ إِظْهَارُ مَطْوَيَاتِ الْبَوَاطِنِ، فَحِيثُ إِنَّ الْمُتَكَلُّمَ قَدْ أَبْدَى عَنِ إِرَادَةِ نَفْسِهِ أَوْ عَنِ وَاقِعَةِ خَارِجِيَّةِ عَبَرِ الْكَلَامَاتِ فَأَصْبَحَ مُتَكَلِّمًا إِذَا بَشَرُ لَا يَمْتَلِكُ مَنَاصًا لِإِبْدَاءِ الضَّمِيرِ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الْحُرُوفِ وَالْأَصْوَاتِ وَ...، ثُمَّ تَوَسَّعَ مَعْنَى "الْكَلَامُ" بِمَعْنَاهُ الْعَامِ فَطَبَقَنَاهُ عَلَى ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى أَيْضًا نَظَرًا لِلْحَدِيثِ الْقَوْسِيِّ: كَنْتَ كَنْزًا مُخْفِيًّا فَأَحَبَبْتَ أَنْ أَعْرِفَ...

ولكن وفقًا لِهَذَا التَّفْسِيرِ مِنَ الْكَلَامِ، سَيَتَّحَدُ سُنْخُ التَّكَلُّمِ الْبَشَرِيِّ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَكَذَا سَيَنْدَمُ التَّكَلُّمُ مَعَ سَائِرِ الصَّفَاتِ الْأُخْرَى كَالْقَدْرَةِ الإِلَهِيَّةِ وَالرَّازِقَيَّةِ وَ...، وَقَدْ التَّزَمَتْ بِهِ الْفَلَاسِفَةُ.

الاستدلالُ التالي للأشاعري

لقد أثَبَتَ الأَشْعَرِيُّ الْمَعْتُوهُ التَّغَيِّيرَ مَا بَيْنَ الْكَلَامِ النَّفْسِيِّ وَبَيْنَ الْعِلْمِ فِي الْإِخْبَارِ وَالْإِرَادَةِ فِي الْإِنْشَاءِ، مَسْتَدِلًا بِأَنَّ الْجَمَلَ الْخَبَرِيَّةَ تَتَمَنَّعُ بِثَلَاثِ اِفْتَرَاضَاتِ: إِمَّا أَنْ يُعْلَمَ بِالنَّسْبَةِ الْحَكْمِيَّةِ الْخَبَرِيَّةِ وَإِمَّا أَنْ يُشُكَّ وَإِمَّا أَنْ يُعْلَمَ بِالْخَلَافِ فَرَغْمَ مَخَالِفَةِ الْخَبَرِ مَعِ الْوَاقِعِ إِلَّا أَنَّ الْمُخْبَرَ يُنْبِئُ بِذَلِكَ أَيْضًا، ثُمَّ اسْتَنَتَجَ بِأَنَّ الْإِخْبَارَ بِأَمْرٍ مُشَكُوكٍ أَوْ بِحَادِثَةٍ مُضَادَّةٍ لِلْوَاقِعِ يَدِلُّ عَلَى أَنَّ الْخَبَرَ يَفْوَقُ الْعِلْمَ إِذْ كَيْفَ يَشُكَ الْمَرءُ أَوْ يَعْلَمَ الْخَلَافَ وَرَغْمَ ذَلِكَ يُنْبِئُ بِهِمَا، وَهَذَا يَكْشِفُ عَنْ وُجُودِ عَنْصَرٍ ثَالِثٍ يُغَيِّرُ الْعِلْمَ وَالْإِرَادَةَ وَلَا مُنَاقِشَةَ فِي التَّسْمِيَّةِ.

وَتَأْمِسُ عَلَيْهِ بَأْنَهُ لَوْ أَرَادَ إِثْبَاتَ أَنَّ الْكَلَامَ النُّفْسِيَّ يُغَايِرُ حَكْمَ النُّفْسِ بِالنَّسْبَةِ الْحَكْمِيَّةِ فَهُوَ غَيْرُ الْعِلْمِ فَهُدَا مُتَفَقُّ عَلَيْهِ لَأَنَّا نَعْتَقِدُ بِأَنَّ
الْإِذْعَانَ بِالنَّسْبَةِ الْحَكْمِيَّةِ هُوَ الْعِلْمُ لَا مُحْضُ حَكْمَ النُّفْسِ، وَلَوْ أَرَادَ إِثْبَاتَ أَنَّ نَفْسَ الْعِلْمِ هُوَ غَيْرُ حَكْمَ النُّفْسِ بِهَذَا الْعِلْمِ، فَإِنَّا قَاتِلُوهُ
أَيْضًا وَفَقًا لِلْمُحَقَّقِيِّ الرَّشْتَيِّ وَالْأَصْفَهَانِيِّ إِلَّا أَنَّ الْمُحَقَّقَ الْأَصْفَهَانِيَّ قدَ اعْتَرَضَهُمْ بِأَنَّ هَذَا الْحَكْمَ النُّفْسَانِيُّ يُعَدُّ مِنْ أَفْعَالِ النُّفْسِ
الْحَادِثَةِ لَا مِنَ الصَّفَاتِ وَالْكَيْفِيَّاتِ النُّفْسَانِيَّةِ؛ بَيْنَمَا يَوْدُ الْأَشْعَرِيُّ إِثْبَاتَ قِدْمَ صَفَةِ التَّكَلُّمِ وَقَدْ خَابَ فِي تَسْجِيلِ الْكَلَامِ النُّفْسِيِّ أَخِيرًا
بَلْ قَدْ نَجَحَتْ فَكْرَةُ الْمُعَذَّلَةِ وَالْإِمَامِيَّةِ تَمَامًاً.[3]

[1] سورة النساء، الآية 164.

[2] وقد أشار إلى ذلك السيد الخوئي أيضًا قائلاً: فلان المتكلم ليس مشتقاً اصطلاحياً. لفرض عدم المبدأ له، بل هو نظير هيئة
اللابن، والتامر، والمتقمص، والمتتعل، والبقال
و ما شاكل ذلك، فان المبدأ فيها من أسماء الأعيان، والذوات، و هو اللbin، و التمر، و القميص، و النعل، و البقل، و لكن باعتبار
انخاذ الشخص هذه الأمور حرفه و شغلا و لازماً له صارت مربوطة به، و لأجل هذا الارتباط صح إطلاق هذه الهيئات عليه. نعم
أنها مشتقات جعلية باعتبار جعلية مبادئها و مصادرها. و السبب في ذلك أن الكلم ليس مصدراً للمتكلم، لفرض أن معناه الجرح لا
الكلام، و الكلم ليس فعلاً ثالثاً مجرداً له، ليزيد عليه حرف فيصبح مزيداً فيه. و عليه فبطبيعة الحال يكون التكلم مصدراً جعلياً، و
الكلام اسم مصدر كذلك. محاضرات في أصول الفقه (طبع دار الهادى)، ج 2، ص: 29

[3] وبتعبير آخر، أولاً: إن هذا الإذعان ب بالنسبة إما من أفعال النفس فيصبح حادثاً ولكن الأشاعرة تنكره و إما أنه من الكيفيات
النفسانية فتحتفق الصورة في النفس سواء كان شكاً أو مخالفًا للواقع فإنه ليس عنصراً ثالثاً بل هو العلم بالكذب و العلم بالشك.
وثانياً: بأنّ نَفْسَ الشَّكِّ و نَفْسَ الْعِلْمِ بِالْخَلَافِ قد تَحَقَّقَا فِي النُّفْسِ الْبَشَرِيِّ فَهِينَما يُنْبَأُ عَنِ الْمُشْكُوكِ فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ قَدْ عَلِمَ بِالْمُشْكُوكِ
ثُمَّ أُنْبَأَ بِهِ، وَكَذَا حِينَما يُنْبَأُ بِخَلَافِ الْوَاقِعِ فَإِنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ قَدْ عَلِمَ الْكَذَبَ فَأُنْبَأَ بِهِ فَيُعَدُّ أَكْنُوْبَةً خَارِجًا، إِذْنَ لَمْ يَسْجُلْ أَيُّ عَنْصَرٍ
ثَالِثًا كَالْكَلَامِ النُّفْسِيِّ، بَلْ هُوَ الْعِلْمُ فَحَسْبٌ، وَإِنَّمَا التَّغْيِيرَاتُ فِي بَسْبُبِ الْمَعْلُومِ أَعْنِي مَتَعَلِّمُ الْعِلْمِ، لَيْسَ أَكْثَرُ، وَثَالِثًا: أَلَمْ يَفْتَرِضِ
الْأَشْعَرِيُّ أَلْأَغْبَرُ أَنَّ الْكَلَامَ النُّفْسِيَّ يَقُوْمُ مَدْلُولاً لِلْكَلَامِ الْلَّفْظِيِّ بَيْنَمَا أَسَاسُ الشَّكِّ وَخَلَافِ الْوَاقِعِ لَيْسَ أَمْرًا قَدِيمًا رَاسِخًا فِي النُّفْسِ
لَكِي يُنْبَأَ عَنِ الْمُتَكَلِّمِ، إِذْنَ لَا يَحْقِقُ الْأَشْعَرِيُّ أَنَّ يَسْتَشَهِدَ بِأَنَّ الْإِخْبَارَ يُغَايِرُ الْعِلْمَ إِذْ الشَّكِّ وَ... لَا يُدْلِلُ عَلَيْهِ وَإِذَا دُلِّلَ عَلَيْهِ فَهُوَ مِنْ
نَمْطِ الْعِلْمِ بِالْمَعْلُومِ أَيِّ إِخْبَارٍ بِالْشَّكِّ أَوِ إِخْبَارٍ بِالْهَزَلِ أَوِ إِخْبَارٍ بِخَلَافِ الْوَاقِعِ وَهَكُذا.
وَاعْلَمُ أَنَّ كُلَّ هَذِهِ التُّرَهَاتِ قَدْ اُنْبَثَقَتْ مِنَ التَّبَاعِدِ عَنْ مَكْتِبَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَتَخَلَّوْا عَلَيْهِمُ فِي عَقُولِهِمُ النَّاقِصَةِ بَيْنَمَا قَدْ
اسْتَغْرَقُوا أَوْقَاتِ الْعِلَمَاءِ بِأَبَاطِيلِهِمُ الَّتِي لَا يَفْقَهُونَهَا فَأَمَدَ اللَّهُ ضَلَالَتِهِمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ، وَنِعَمْ مَا قَالَهُ الْإِمَامُ
الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ أَعْدَانَنَا مِنَ الْحَمْقِيِّ.